



# الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة قبيل الهجرة وبعدها دراسة مقارنة

د. أحمد محمد محمد شيبان

باحث ورئيس قسم البحوث في مركز  
بحوث ودراسات المدينة المنورة

**تهدية:** يرسم هذا البحث الملامح العريضة للحياة الاقتصادية في المدينة المنورة قبيل هجرة الرسول الكريم ﷺ والمسلمين إليها، والنقلة النوعية التي أحدثتها الهجرة الشريفة في كل جوانب الحياة الاقتصادية فيها. ويوضح البحث أيضاً الأسباب التي كانت تعيق سكان يثرب عن الانطلاق في اقتصادياتهم إلى الأسواق العالمية، ومدى تأثير الهجرة في تجاوز تلك الأسباب. كما يوضح أهمّ المعاملات التجارية التي كانت سائدة عند سكان يثرب في الجاهلية، ومدى تأثيرها السلبي على الاقتصاد المحلي، والتشريعات الحكيمة التي فرضها النبي ﷺ للقضاء على أسباب الفساد والغش والاستغلال. ويرصد البحث - في شقه الثاني - تطور الحركة الاقتصادية في المدينة المنورة ونموها شيئاً فشيئاً إلى نهاية العهد المدني بهدف رسم صورة متكاملة للحياة الاقتصادية التي عاشها الحبيب الأعظم ﷺ وصحابته الكرام في المدينة المنورة خلال عشر سنوات.

المجتمع اليثربي مجتمع زراعي في الدرجة الأولى، له نشاطات تجارية وصناعية محدودة، وقد تصدرت الزراعة اقتصاديات يثرب بسبب وفرة مياهها وخصوبة تربتها<sup>(١)</sup>.

ففي سهولها التي تحيط بها الحرار تتساب ستة أودية تمتلئ بالمياه في عدد من شهور السنة أشهرها: وادي العقيق<sup>(٢)</sup> وقناة<sup>(٣)</sup> ويطحان<sup>(٤)</sup> ورائوناء<sup>(٥)</sup> ومذنيب<sup>(٦)</sup> ومهزور<sup>(٧)</sup>.

وتنتشر في الأرض الواقعة بين هذه الأودية الآبار والعيون والمياه

(١) انظر: المفصل في تاريخ العرب ١٣/٣١٢.

(٢) من أودية المدينة المشهورة، أصل مسيله من النقيع قبلي المدينة، ويصل إلى الخليقة، ثم يأتي غربي جبل عير ويصل إلى ذي الحليفة، ثم يأتي مشرقاً إلى قريب الحرة ثم يعرج يساراً. انظر: تحقيق النصر للمراغي ص ٣٠٩؛ وفاء الوفا ٣/١٠٣٧؛ آثار المدينة للأنصاري ص ٢١٥.

(٣) من أودية المدينة يأتي من شرقها، وأعلى مصادره من وج في الطائف، ويشق الحرة المحترفة، ويصل إلى معاذة أحد من الناحية الجنوبية، وهو المعروف اليوم بسيل سيدنا حمزة. انظر: آثار المدينة للأنصاري ص ٢٣٣.

(٤) من أودية المدينة، يبدأ من بستان الماجشونية إلى غرب مسجد الفتح، ويخترق منطقة قربان في مجراه، ويعرف عند أهل المدينة بسيل أبي جيدة. انظر: أخبار المدينة لابن شبة ١/١٦٧؛ المغانم المطابة ص ٢٨٦؛ آثار المدينة ص ٢٢٩.

(٥) من أودية المدينة المشهورة، مصدره جبل جنوبي عير، يمر بنخيل العصبية، ويختلط سيله بوادي بطحان. انظر: تحقيق النصر ص ٣١٤؛ وفاء الوفا ٣/١٠٧٢؛ آثار المدينة ص ٢٢٥ - ٢٢٧.

(٦) من أودية المدينة، يأتي من شرق حصن كعب بن الأشرف، ويسير حتى يختلط بوادي بطحان. انظر: آثار المدينة للأنصاري ص ٢٣٠.

(٧) من أودية المدينة، يصدر من حرة واقم، ويجتمع بمذنيب، ويصبان معاً في وادي بطحان، ثم يمضي الجميع إلى الغابة مجمع سيول المدينة بضاحتها الشمالية، ومنه شعبة تشق طريقها في الحرة الشرقية إلى العريض فتصب في وادي قناة. انظر: آثار المدينة ص ٢٣١ - ٢٣٢؛ تاريخ معالم المدينة للخيار ص ٢٠٦.

السطحية، ومن أشهر آبارها: بئر أريس<sup>(١)</sup> في قباء، وبئر بُضاعة<sup>(٢)</sup> في منطقة منطقة تسمى باسمها، وبئر رُومة<sup>(٣)</sup> في الجهة الغربية الشمالية، بالقرب من وادي العقيق، وبئر غرس<sup>(٤)</sup> في العالية.

وترجع خصوبة أرض المدينة (يثرَب) إلى عاملين أساسيين:

الأول: الرواسب البركانية الناتجة عن تفتت الحرار.<sup>(٥)</sup>

والثاني: الرواسب الطبيعية التي تجرفها السيول.

وكان لهذه الطبيعة أثر كبير في اجتذاب الهجرات المتوالية إليها، بدءاً بالعبيليين الذين أسسوها، وانتهاء بالأوس والخزرج. وهؤلاء جميعاً قدموا من مجتمعات زراعية عريقة، وأسهموا في توسيع الرقعة الزراعية، وتنوع المحاصيل.

### النخيل أشهر مزروعات يثرَب:

(١) تقع البئر قرب مسجد قباء من الجهة الغربية. وسميت بد (أريس) نسبة إلى رجل من اليهود، كما سميت بد (الخاتم): لأن خاتم الخلافة سقط فيها من عثمان بن عفان في السنة السادسة من خلافته وبحوثه عنه ثلاثة أيام دون جدوى، وهو الخاتم الذي كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر: وفاء الوفا ٩٤٢/٣ - المغانم المطابة ٧٨/٢ - معجم معالم الحجاز ٨٩/١.

(٢) تقع في الجهة الشمالية الغربية من المسجد النبوي، كانت البئر لبني ساعدة، أتاه النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ منها وبصق فيها، أزيلت في التوسعة الأخيرة للمسجد النبوي الشريف، وتطوير المنطقة المحيطة به. انظر: المغانم المطابة ٩١/٢، وفاء الوفا ٩٥٦/٣، تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً ص ١٨٥.

(٣) بئر قديمة تنسب لرجل من قبيلة غفار اسمه رومة، وتسمى بئر عثمان: لأن الصحابي الجليل عثمان بن عفان عفان ﷺ اشتراها وأوقفها في سبيل الله. تقع في الشمال الغربي من المدينة المنورة قرب مجرى وادي العقيق، وتبعد عن المسجد النبوي حوالي خمسة كيلومترات. انظر: الترمذي كتاب المناقب مناقب عثمان ٣٦٩٩/٤، وفاء الوفا ٩٦٧/٣، معجم معالم الحجاز ١٦٢/١، ١٠١/٤.

(٤) تقع البئر شرقي مسجد قباء، إلى جهة الشمال قليلاً، في ظل مبنى مدارس الهجرة حالياً، كان النبي صلى الله عليه وسلم يستطيب ماها ويبارك فيها، انظر: المغانم المطابة في معالم طابة للفيروزآبادي ١٢١/٢، وفاء الوفا ٩٧٨/٣، تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، للخيارى، ص ١٨١.

(٥) أخبار الوادي المبارك ص ٢٨٢.

يعتبر النخيل أهمّ المزروعات في المدينة (يثرب)<sup>(١)</sup> حتى اشتهرت به، كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (( رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة، أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب ))<sup>(٢)</sup>.

ويصف امرؤ القيس يثرب بالجنة لكثرة نخيلها فيقول:

علون بأنطاكية فوق عقمة      كجرمة نخل أو كجنة يثرب<sup>(٣)</sup>  
ويعدُّ التمر المحصول الأول والأهم عند اليهود والعرب على السواء، وكان يسمى عندهم مالاً، قال أحيحة بن الجلاح - وكان سيد الأوس في الجاهلية - يصف بستاناً له يعمل فيه:

إني أقيم على الزوراء أعرها      إن الكريم على الإخوان ذو المال  
لها ثلاث بئار في جوانبها      فكلها عُقبُ تسقى بأقبال<sup>(٤)</sup>  
وفي حديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (( وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخوتي من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم ))<sup>(٥)</sup> أي: نخيلهم وبساتينهم.

والنخيل من أنفس أموال أهل يثرب، تدرّ على صاحبها الريح الكثير،

(١) فتوح البلدان للبلاذري ١٨/١ - ٢٢.

(٢) الحديث في البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ١٣٢٦/٣، ومسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ، ١٧٧٩/٤.

(٣) البيت في ديوان امرئ القيس ص ١١ من قصيدة مطلعها: خليلي مرّاً بي على أم جندب ❖ نُقِضُ لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

وانظر: المفصل لجواد علي ٧١/١٣، وتاج العروس، مادة جرم.

(٤) انظر: الأغاني ٣٧/١٥، المدينة النبوية في فجر الإسلام لمحمد حسن شراب ص ٣٠. والعقب: جمع عقبه وتعني التوبة، وأقبال الجداول: أوائلها ورؤوسها.

(٥) الحديث في البخاري، كتاب المزارعة، باب ما جاء في العُرسِ، ٨٢٧/٢، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة الدؤسي ﷺ ١٩٣٨/٤.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (( خير المال سكة مأبورة))<sup>(١)</sup> أي: نخل مصطف ملقح. وما ذاك إلا لأن التمر مادة أساسية في غذاء العرب، يأكلونه رطباً ويابساً في حلهم وأسفارهم.

واشتهرت المدينة بأنواع متميزة من التمور لا تزال حتى الآن، كالعنبرة والعجوة والصفراوي والبرني وغيرها، وقد ألف فتح الدين الزرندي المدني رسالة في أنواع تمور المدينة رتبها على حروف المعجم فبلغت مائة وثلاثة عشر نوعاً.<sup>(٢)</sup>

ولم تقتصر منافع النخيل عند الثريين على تمرها فقط، بل كانوا يستفيدون من معظم أجزائها، من جذوعها وعسفها في صنع العرائش وسقوف البيوت وأعمدة الخيام، ومن نوى تمرها في طعام الحيوانات، وقد أوصل البعض فوائد النخيل إلى ٣٦٠ فائدة.<sup>(٣)</sup>

ويشغل النخيل حيزاً غير قليل من شعر أهل يثرب وأمثالهم، مما يدل على امتزاجه بحياتهم، وبُعد جذوره في مجتمهم، فمن ذلك قولهم في المثل: ( التمرة إلى التمرة تمر)<sup>(٤)</sup> وهو مثل يضرب في استصلاح المال وجمعه، وقولهم: ( التمر في البئر وعلى ظهر الجمل)<sup>(٥)</sup> وأصله أن ثمرة النخيل حينما

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد ٤٦٨/٣، ومسند الشهاب ٢٣٠/٢، والمعجم الكبير ٩١/٧، من حديث سويد بن هبيرة رضي الله عنه

(٢) ذكر ذلك الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه: "الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام والحجاز" قال: ووجدت بخط بعض العلماء أسماء تمور المدينة الشريفة على حروف المعجم، لفتح الدين الزرندي المدني وهذه هي حروف المعجم. ثم بدأ بسردها. وأوصلها إبراهيم باشا في مرآة الحرمين إلى ١٧٢ نوعاً. انظر: المدينة النبوية في فجر الإسلام ٣٩٢/١.

(٣) المفصل في تاريخ العرب ٦٩/١٣.

(٤) هذا المثل من قول أحيحة بن الجلاح، انظر: جمهرة الأمثال للعسكري ٢٨٢/٢، ومجمع الأمثال للنيسابوري ص ١٢٧.

(٥) انظر: المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ص ٣٠٧، ومجمع الأمثال للنيسابوري ص ١٣٧ قال: " وهذا قريب من قولهم عند الصباح يحمد القوم السرى".

حينما تصبح بُسراً يقف منادٍ على أطمٍ من أطام المدينة فيقول هذا ، يقصد بذلك أن من سقى وجد عاقبة سقيه في تمره ، ثم أصبح يضرب في حسن عاقبة المجد .

ومن الشعر قول أحيحة بن الجلاح يذكر فضائل النخلة:

هي الظل في الحر حق الظلي      ل والمنظرُ الأحسنُ الأجلُ  
تَعَشَى أسافلها بالحَبوب      وتأتي حلوبتها من عل<sup>(١)</sup>  
وتصبح حيث تبيت الرعاء      وإن ضيعوها وإن أهملوا  
فعم لعمكم نافع      وطفل لطفلكم يؤمل<sup>(٢)</sup>

ويأتي الشعير في الدرجة الثانية من مزروعات يثرب من حيث الكمية والأهمية ، يزرعونه تحت النخيل غالباً<sup>(٣)</sup> ، وكانوا يصنعون منه الخبز ، ويطعمون منه مواشيهم<sup>(٤)</sup> ، أما القمح فكانت زراعته قليلة<sup>(٥)</sup> ، ولهذا روى ابن حجر عن ابن المنذر قوله: "ولم يكن البر بالمدينة ذلك الوقت إلا الشيء اليسير منه"<sup>(٦)</sup> ، وكانوا يستوردونه من الشام.<sup>(٧)</sup>

وأما الفواكه فأوفرها وأكثرها العنب<sup>(٨)</sup> ، يأكلونه رطباً ويابساً ، ويعتبرونه من غالب قوت البلد؛ لكثرة تداوله بينهم<sup>(٩)</sup> ، ثم البطيخ والرمان

(١) البيتان في شرح أبيات المغني: ٦ / ١٣٣. وفي اللسان (ظلل). شبه النخل بالإبل ، فأسفلها يأخذ غذاءه من التراب ، والمثمرة منها يدرك ثمرها فوقها.

(٢) المدينة النبوية في فجر الإسلام لمحمد حسن شراب ٣٥/١ .

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزي ، تحقيق محمود شاكر ، القاهرة سنة ١٩٤١م .

(٤) مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص ٢٩٣ ، يثرب قبل الإسلام لمحمد السيد الوكيل ص ١٣٢ .

(٥) وهذا يفسر لنا عدم ذكره ضمن أصناف الزكاة .

(٦) فتح الباري ٣ / ٤٣٧ .

(٧) التراتيب الإدارية للكتاني ٥٢/٢ - ٥٣ .

(٨) مجتمع المدينة في عصر الرسول ص ٣٣٨ .

(٩) يثرب قبل الإسلام للوكيل ص ١٣٣ .

والموز والليمون.<sup>(١)</sup>

وهناك أنواع من الخضروات والبقول كالذباذبا والقثاء والكوسا والباذنجان والفاصولياء والثوم والبصل والكرات والسلق وغيرها<sup>(٢)</sup>، وكانت تزرع بين النخيل حيناً، وفي بساتين مستقلة حيناً آخر لتسد حاجة أهل يثرب.

وكانوا يتفاضلون في امتلاك الأراضي الزراعية، فمنهم من يملك المساحات الكبيرة، ومن هؤلاء أبو طلحة الأنصاري زيد بن سهل رضي الله عنه<sup>(٣)</sup>، ومنهم من يملك قدر ما يستطيع زراعته والقيام عليه، ومنهم من لا يملك شيئاً فيضطر للعمل عند غيره عن طريق المزارعة<sup>(٤)</sup> أو الكراء أو المساقاة<sup>(٥)</sup> المساقاة<sup>(٥)</sup> أو غير ذلك.

(١) انظر: عمدة الأخبار للعباسي ص ٢٨١، يثرب قبل الإسلام للوكيل ص ١٢٣،

(٢) يثرب قبل الإسلام للوكيل ص ١٢٣، وينظر كتب الأحاديث والسير ففيها ذكر لهذه البقوليات.

(٣) وفي الصحيح: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيْرْحَاء، وكانت مستقبله المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الله تعالى يقول في كتابه: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وإن أحب أموالي إلي بيْرْحَاء وإنها صدقة لله أرجو برّها ودخرها عند الله فضعتها يا رسول الله حيث شئت. فقال: بَخِ ذَلِكَ مَالٌ رَأَيْتَ ذَلِكَ مَالٌ رَأَيْتَ، قد سمعت ما قلت فيها وأرى أن تجعلها في الأقربين قال: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. تابعه إسماعيل بن مالك وقال رُوِيَ عن مالك: رَأَيْتَ.

صحيح البخاري، كتاب الوكالة، باب: إذا قال الرجل لوكيله ضعه حيث أراك الله وقال الوكيل قد سمعت ما قلت ٨١٤/٢ دار ابن كثير، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا

(٤) المزارعة: معاملة على أرض ببعض ما يخرج منها والبذر من المالك. حاشية إعانة الطالبين للديلماتي ١٦٣/٢. وفي جوازها خلاف بين الفقهاء.

(٥) المساقاة: أن يعامل غيره على نخل أو شجر عنب ليتعهد به بالسقي والتربية على أن الثمرة لهما. أسنى المطالب في شرح روض الطالب للشيخ زكريا الأنصاري ٣٩٣/٢.



وكان لبعض أغنياء يثرب وخاصة اليهود منهم عبيد يعملون معهم في الحقول، ومما يدل على ذلك قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه<sup>(١)</sup>.  
التجارة عند اليرببيين:

وتأتي التجارة في الدرجة الثانية من اقتصاديات يثرب قبيل الهجرة، وبالرغم من أنها تنشأ بشكل طبيعي في كل تجمع سكاني، إلا أن موقع يثرب المتميز على الطريق التجارية بين الشام ومصر في الشمال، واليمن والحبشة والهند في الجنوب، ساعدها على تنشيط التجارة فيها، حيث صارت محطة استراحة لكثير من القوافل، وسوقاً يتبادل فيها الجانبان السلع والمنتجات.

وقد تمخضت هذه الحركة عن نشوء أسواق تجارية توزعت في أنحاء مختلفة من أرض يثرب<sup>(٢)</sup> كسوق زباله في الشمال الغربي في منطقة الجرف، وسوق الصفاصاف في قباء، وسوق مزاحم في الجهة الجنوبية الغربية بين قباء وبطحان، وسوق بني قينقاع<sup>(٣)</sup> وسط المدينة، وهي أعظم أسواقها، تكثر فيها الحركة، ويسمى منها ضجة البيع والشراء.<sup>(٤)</sup> وكانت بعض هذه الأسواق فضاءً واسعاً لا بناء فيه<sup>(٥)</sup>، ومن يسبق إلى السوق فله المحل الذي يضع فيه بضاعته، إلا أن بني قينقاع اتخذوا محلات لهم في سوقهم، يبيعون فيها المجوهرات<sup>(٦)</sup>، ويقومون بأعمال الصرافة

(١) انظر القصة في دلائل النبوة للبيهقي ٨١/٢.

(٢) انظر: تاريخ المدينة لابن شبة ١٨٤/١ - ٢٠٦، مجتمع المدينة في عهد الرسول ص ٢٤١، يثرب قبل الإسلام للوكيل ص ١٤٧.

(٣) وقد ورد ذكرها في الصحيح.

(٤) المراجع السابقة.

(٥) انظر: وفاء الوفا ٧٤٩/٢، مجتمع المدينة ص ٢٤١.

(٦) وإلى هذا تشير قصة الأنصارية التي ذهبت إلى سوقهم لتبيع بعض حليها، فحاول بعض اليهود أن يعبثوا بها

وتبادل النقود الرومية والفارسية وغيرها.

وكان أهل يثرب ومن جاورهم من البادية يعرضون في هذه الأسواق غلاتهم الزراعية ومنتجاتهم الحيوانية وصناعاتهم اليدوية، فكانوا يبيعون التمر والرطب والشعير والقثاء والسلق والعب والبطيخ، والخمر والحطب واللبن والأقط، والإبل والغنم والماعول الزراعية والحلي وبعض أنواع الأسلحة وغيرها.<sup>(١)</sup>

وأما القوافل التجارية فتأتي بالزيت والنبيد والحنطة والمنسوجات القطنية والحريرية، والنمازق الملونة المرسومة، والعمطور، وبعض الأسلحة، والرقيق.<sup>(٢)</sup>

وكانوا يتبايعون إما بالمقايضة وهو بيع عَرَضَ بِعَرَضٍ معادل له في الثمن ومتفق معه في الجنس كالتمر بالتمر، والذهب بالذهب، أو مختلف كالشعير بالتمر والذهب بالفضة، أو بالنقود وأشهرها<sup>(٣)</sup> الدراهم والدنانير.<sup>(٤)</sup>

والدرهم: قطعة مستديرة من الفضة، يضرب في بلاد فارس، ويرسم

فانتصر لها رجل من المسلمين فقتل اليهودي، إلى آخر القصة التي كانت سبباً في إخراج يهود بني قينقاع من المدينة. انظر الحادثة عند ابن إسحاق وغيره من كتّاب السير.

(١) راجع كتاب البيوع من كتب الصحاح والسنن. وانظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص ٣٦٦، يثرب قبل الإسلام للوكيل ص ١٤٨.

(٢) مجتمع المدينة في عهد الرسول ص ٣٤١.

(٣) أثبتت الحفريات الأثرية وجود بعض العملات العربية القديمة من حميرية ونبطية وتدمرية كانت متداولة، ويبدو أن تداولها كان على نطاق ضيق؛ لقلتها أو لضعف الثقة بها. تطور النقود العربية لمحمد باقر الحسيني ص ٤٥، ١٨، مجتمع المدينة في عهد الرسول ص ٣٤١.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٤٦١/١، الفصل في تاريخ العرب ١٧٦/١٤، وقد أشارت كثير من كتب الأحاديث والفقهاء إلى أنواع البيوع التي كانت العرب تتعامل بها في الجاهلية كالملاسة والمباذة وغيرها.

عليه صورة كسرى، ويكتب اسمه بالفارسية، وعلى ظهره صورة حارسين بينهما موقد النار الذي يسهران على حراسته، كما كان يرسم على بعضها صور للقمر أو النجوم.<sup>(١)</sup>

وأما الدينار: فهو قطعة مستديرة من الذهب الخالص، يضرب في بلاد الروم، ويرسم عليه صورة الملك، ويكتب عليه اسمه بالرومية.<sup>(٢)</sup> ويتم التعامل بالدرهم والدنانير في معظم الأحيان<sup>(٣)</sup> باعتبارها معدناً نفيساً وليس نقداً ثابت القيمة، فالدرهم كانت توزن؛ لأن منها الكبير والصغير والثقيل والخفيف، تبعاً لورودها من بلاد فارس<sup>(٤)</sup>، وأشهر وحدات الوزن هي: الأوقية وتساوي أربعين درهماً، والنش ويساوي عشرين درهماً، والنواة وهي خمسة دراهم، والرطل ويساوي اثني عشرة أوقية، والقنطار مائة رطل، ومن الوحدات المشهورة التي تستخدم لوزن الذهب والفضة أيضاً: الدانق والمثقال والشعيرة.<sup>(٥)</sup>

وكانوا يتبايعون بالكيل، وقد عرف عنهم أنواع من المكايل أشهرها المدّ، ويُعدّ الوحدة الرئيسية لمكايلهم، وهو يساوي ملء كفي الرجل المعتدل من التمور أو الحبوب، والصاع: ويساوي أربعة أمداد، والفرق: ويساوي ثلاثة أصع، والوسق: ويساوي ستين صاعاً<sup>(٦)</sup>، والقرب والجرار:

(١) انظر: الترتيب الإدارية ٤١٦/١، مجتمع المدينة في عهد الرسول ص ٣٥٨.

(٢) المرجع السابقين.

(٣) الترتيب الإدارية ٤١٣/١ - ٤١٦، مكة والمدينة للشريف ص ٣٠٦.

(٤) الدلالات السمعية للزخاقي ص ٦٠٥، الترتيب الإدارية ٤١٣/١، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة. د أكرم ضياء العمري ص ٣٠.

(٥) مكة والمدينة للشريف ص ٣٠٦، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة. د أكرم ضياء العمري

ص ٣٠، وانظر: الفصل لجواد علي ١٨٤/١٤، ١٨٨.

(٦) المراجع السابقة، وانظر: المحلى لابن حزم ٢٤٦/٥، وفقه الزكاة للقرضاوي ٣٦٧/١ - ٣٧١.

وتقاس بها السوائل كالزيت والسمن والماء، وهي مختلفة الأحجام. وأما الأطوال فأشهرها: الذراع ويساوي ٤٩.٨٠ سم تقريباً<sup>(١)</sup>، والميل ويساوي ٢٦٦٦ متراً تقريباً<sup>(٢)</sup>، والفرسخ ويساوي ثلاثة أميال. وبالرغم من وجود هذه المكايل والموازين والمقاييس إلا أنهم كثيراً ما كانوا يلجؤون إلى الجراف في البيع والشراء.<sup>(٣)</sup>

وكانوا يتبايعون بأنواع من البيوع في بعضها غرر وغش وضرر بالمجتمع كالمناجشة وهو أن يدخل بعض الأشخاص في البيع لا بقصد الشراء وإنما بقصد رفع قيمة السلعة حتى يوهم الناس بأنها جيدة ورائجة<sup>(٤)</sup>، وكثيراً ما يخلطون الجيد بالرديء، ويبلون القمح والشعير بالماء حتى يكثر عند الكيل، ويتركون الماشية التي يريدون بيعها دون حلب حتى يجتمع اللبن في الضرع فيحسبها الشاري حلوباً غزيرة اللبن. كما كانوا يبيعون إلى أجل، أو مقابل رهن يقدمه المشتري إلى أن يدفع القيمة ويسترد الرهن، وهاتان الوسيلتان من أبرع وسائل زيادة الربح وتنشيط الحركة التجارية، حيث كان يقبل على الشراء من يملك الثمن ومن لا يملك الثمن. بيد أن فيها من الضرر بالمشتري ما لا يخفى، حيث يستغل البائع حاجته فيرفع السعر مقابل التأجيل، وكان لليهود دور بارز في هذه الأسواق، وأثر سيئ في إشاعة

(١) رجح السهمودي وتبعه صالح لمعي كون الذراع يساوي ٤٩.٨٠، انظر: المدينة المنورة تطورها العمراني ص

٤٨. ويقدر الميل بـ ٢٦٦٦ م وأما الفرسخ فيقدر بثمانية أكيال تقريباً. أخبار الوادي المبارك ص ٨١.

(٢) هناك خلاف في مقدار الميل فقد رجح العياشي في كتابه: "المدينة بين الماضي والحاضر ص ٣٠ أن الميل

يساوي ١٥٠٠ م أي: كيلو ونصف، وقال شراب في كتابه: "المدينة المنورة في فجر الإسلام والعصر الراشدي

ص ٣٣٩: إن الميل القديم يساوي حوالي كيلين ونصف الكيل. وحدده في كتابه: "أخبار الوادي المبارك

ص ٨١ بـ ٢٦٦٦ م. ولعل الأرجح ما ذكره في المعجم الوسيط مادة (الميل) من أن الميل البري يساوي ١٦٠٩ م

والبحري ١٨٥٢ م، وانظر: الموسوعة العربية العالمية (الميل).

(٣) الجراف: هو أخذ الشيء بالحدس، بلا كيل ولا وزن ولا عدد. المفصل ١٤/٨٣.

(٤) إعانة الطالبين للدمياطي ٢/٢٦.

التعامل بالربا. وكان الربا الشائع في الجاهلية هو ربا النسيئة وهو: قرض مؤجل بزيادة مشروطة،<sup>(١)</sup> وكان أصحاب رؤوس الأموال من اليهود وغيرهم يحققون أرباحاً مضاعفة من خلال التعامل بالربا، إذ كان كل تأجيل لدفع الدين يجر إلى زيادة الفائدة الربوية، ويروى أن أنصارياً اقترض ثمانين ديناراً من يهودي بفائدة قدرها ٥٠ بالمائة من المبلغ لسنة واحدة.<sup>(٢)</sup>

وأما الأسواق الخارجية ليثرب فالشام واليمن، بيد أن الإثريين لم يكونوا أصحاب قوافل على نحو ما كان عليه أهل مكة، ولكنهم كانوا يشاركون في قوافل التجار الآخرين، فقد ورد عن أبي رافع بن أبي الحقيق<sup>(٣)</sup> أنه كان يرسل بتجارة إلى الشام بواسطة القوافل، ويستورد منها الأقمشة المختلفة.<sup>(٤)</sup>

ولعل أبرز الأسباب التي قللت خروج أهل يثرب بقوافلهم إلى الأسواق الخارجية انصرافهم إلى الزراعة واعتناؤهم بها، وشراؤهم بغيتهم من القوافل الكثيرة التي كانت تمرّ بهم، كما أن بعض الواردات من موانئ الجار<sup>(٥)</sup> وينبع كانت تجد طريقها إلى أسواق يثرب<sup>(٦)</sup>.

تربية الماشية:

تعتبر تربية المواشي ثالث الموارد الاقتصادية من حيث الأهمية عند

(١) انظر: الربا للمودودي ص٩٦، والمفضل لجواد علي ٤٢٣/٧.

(٢) انظر: المفضل لجواد علي ٤٣٣/٧.

(٣) أحد زعماء اليهود، وهو ممن ألب الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ. انظر سبل الهدى والرشاد ١٠٢/٦.

(٤) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص٣٠٤/١، مجتمع المدينة في عهد الرسول ص٥٠، يثرب قبل الإسلام ص١٥٥.

(٥) الجار: أقدم وأقرب الموانئ للمدينة على ساحل البحر الأحمر، يبعد عنها مسافة ١٦٠ كم تقريباً، ويبعد عن بلدة الرياض مسافة ١٠ كم. انظر: المسالك والممالك للاصطخري ص٣٣، المدينة المنورة في العصر المملوكي ص١٢٦. الموسوعة العربية العالمية ٥٢/١.

(٦) مكة والمدينة ص٣٠٤، يثرب قبل الإسلام ص١٥٦.

اليثريين، نظراً لكثرة فوائدها، وقلة مؤونها، إلا أن ما يملكه أهل يثرب قليل بالنسبة لما تملكه مكة والقبائل العربية منها.<sup>(١)</sup>

ويوجد بالقرب من يثرب عدد من المناطق الرعوية، وقد عد السمهودي اثنتي عشرة منطقة تسرح فيها الماشية حول المدينة،<sup>(٢)</sup> فضلاً عن الغابة وزغابة وأطراف الأودية والشعاب، وفي شرق يثرب مراعي خصبة تقع بين يثرب والريذة كانوا يتجمعونها فيجدون فيها ما يسمن مواشيهم، ويفذي إبلهم.<sup>(٣)</sup>

والإبل أهم المواشي عندهم، وأعزها لديهم، فيها يتفاخرون، وعليها يسافرون ويسقون الزرع، ومنها يشربون اللبن ويأكلون اللحم، ومن جلودها يصنعون النعال والقرب وحياض الماء، ومن أوبارها ينسجون الخيام، وكانوا يدفعونها دية للقتلى، ويذبحونها هدياً في الحج، وقرابين للأصنام. ثم الغنم والماعز، وكانوا يعتمدون على لحومها وألبانها ويصنعون منها الأقط والسمن، كما كان للخيل مكانة خاصة عندهم، يعتنون بها عناية شديدة نظراً لأهميتها في الحروب والأسفار، تليها البغال والحمير فهي وسائل للنقل ومناسبة للفلاحة.

أما البقر فكانت قليلة عندهم، يكرهون تربيتها؛ لاحتياجها إلى الطعام الكثير والخدمة الزائدة، ولا تخلو بيوت المدينة من بعض الدواجن، يستفيدون من بيضها، ويأكلون لحومها. الصناعة عند اليثريين:

**وأما الصناعة:** فقد كانت العرب تأنف العمل بها وتحقر من يمتنها

(١) مكة والمدينة ص ٢٩٦ .

(٢) وفاء الوفا ١١٢٣/٣، وانظر: التاريخ الشامل ١٠٧/١ - ١٠٨ .

(٣) يثرب قبل الإسلام ص ١٤٤ .

بدرجات متفاوتة، وكان الحدادون يمثلون الطبقة الوضيعة عندهم، فلا يزوجونهم، ولا يتزوجون منهم، بل يأنفون من مخالطتهم والتحدث إليهم، وكانت كلمة ( القَيْن ) أي ( العبد الرقيق ) مرتبطة بهم لا تفارقهم. لذلك فإن معظم الصنائع كانت بيد اليهود والموالي وبعض الأفراد الوافدة من غير العرب<sup>(١)</sup>، وأهمّ الصناعات التي كان يقوم بها هؤلاء:

١- الحدادة: وهي من أهم الصناعات عندهم؛ لاحتياجهم الشديد إليها في صناعة الأسلحة والأدوات الزراعية وآلات البناء والأدوات المنزلية، وذلك كالسيوف والدرع ورؤوس الرماح والمساحي والسكك والفؤوس والعتل والمعاول والصحون والقدور.

وكان لليهود وبعض الموالى دور بارز في هذه الصناعة مستغلين احتقار العرب لها واحتياجهم إليها، فأصبح عندهم مستودعات مليئة بالأسلحة والأدوات الزراعية، يشتريها الناس منهم وقت الحاجة فيبيعونها بأسعار مرتفعة. ويذكر الواقدي أن المسلمين لما أرادوا حفر الخندق استعاروا من بني قريظة - وكانوا يومئذ سلماً لرسول الله ﷺ - آلة كثيرة من مساحي وكرازين ومكاتل ليعملوا بها، مما يدل على كثرتها لديهم<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن هذه الصناعة وخاصة الأسلحة منها لم تكن تكفي حاجة أهل يثرب مما دفعهم إلى استيراد كميات أخرى من البلاد المجاورة أو عن طريق القوافل المارة كما سبق.

٢- النجارة: وهي من الحرف الضرورية أيضاً، يحتاجون إليها في صناعة مستلزمات الأسلحة من الأغمد والرماح والأقواس، ومقابض

(١) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٩٣/١٤.

(٢) المغازي للواقدي ١٧٥/١، ونقل ذلك السمهودي ٢٦٨/٤ عن الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان.

الخناجر والسكاكين، وهي أيضاً من الحرف المكمل للبناء سواء في صنع الأبواب والنوافذ، أو الأعمدة والسقوف، ولها دور كبير في تأمين أثاث البيت من الأواني والأقداح والأسرة والهواجر وغيرها . وكان النجارون يؤمنون معظم احتياجاتهم الخشبية من الأشجار الموجودة عندهم من النخيل والشيزي والشوحط والأثل والطرفاء، كما كانوا يستوردون بعض الأخشاب الثمينة كالعاج وغيره. وكانوا يستخدمون في صناعتهم المنشار والفأس والمحفرة والكلبتان والمسمار وغيرها . ويبدو أن هذه الصناعة قد وصلت إلى مراحل متقدمة حتى إن بعض بني النضير لما أجلوا عن المدينة حمل بعضهم أبواب بيوتهم المزخرفة وبعض أخشاب سقوفها مما يدل على قيمتها العالية<sup>(١)</sup>.

٣- الصياغة: وهي العمل بالمعادن الثمينة، وقد اشتهر بها اليهود، خاصة بني قينقاع<sup>(٢)</sup>، فقد كان لهم سوق في وسط المدينة يصنعون فيه صياغتهم، ويبيعون فيه ما يصنعون من أساور وأقراط وخلاخيل ودمالج وخواتم وغير ذلك، كما كانوا يقومون بإصلاح الأسنان بالذهب والفضة، وتحلية السيوف، إضافة إلى صناعة بعض الأواني المنزلية. وكانوا يشترون الفضة والذهب الخالص من أصحاب المناجم المنتشرة في أنحاء الحجاز، فقد كان لبني سليم منجم يسمى باسمهم، ويعرف حالياً بـ (مهد الذهب)، وكان لبني كلاب منجم بالقرب من يثرب يقال له: (الأحسن)، وفي مركز الفرع بالقرب من يثرب أيضاً منجم يقال له: (بحران)، بيد أن هذه المناجم لم تكن تفي بحاجات اليثريين نظراً لبدائية التقني والحفر،

(١) السيرة النبوية ١٤٣/٣، وانظر: التاريخ الشامل ١٠٧/١.

(٢) أخبار مدينة الرسول ص ١٢ .



فكانوا يشترون ما نقص عن حاجاتهم من القوافل التجارية المارة بهم.

٤- **البناء:** كانوا يبنون ما تدعو الحاجة إليه من البيوت والحصون والآطام، مستفيدين من بيئتهم الخاصة في صنع أدوات البناء، لذلك كانت معظم الأبنية في غاية البساطة، جدرانها من اللبن الترابي، وأعمدتها من جذوع النخل، وسقوفها من جذوع النخل وجريدها، بعيدة عن الزخرفة والنقوش، ولكنها تؤدي الغرض الذي بنيت لأجله.<sup>(١)</sup>

وكانوا يستعملون الحجارة في بناء الحصون والآطام التي كانت تشتهر بها يثرب.

ولم يرد ذكر لبتائين محترفين، وجميع الروايات تشير إلى أنهم كانوا يبنون بيوتهم بأنفسهم وبمساعدة معارفهم دون أجره.<sup>(٢)</sup>

٥- **صناعة الخمر:** وكانوا يصنعونها من العنب والتمر والشعير ويخزنونها لاستعمالهم الشخصي وللبيع، وكان يعمل في هذه الصناعة العرب واليهود على حد سواء.

وإضافة إلى ما تقدم فهناك بعض الصناعات الأخرى، كالخياطة والخبازة والدباغة والخرازة والخواصة والنساجة والقصابة والحجامة وغيرها، وكان يقوم بها في الغالب النساء في البيوت أو بعض العبيد.<sup>(٣)</sup>

**الصيد:**

الصيد البري من الموارد الاقتصادية التي كان يعتمد عليها البعض في معاشهم، بينما هو هواية يمارسها البعض الآخر.

(١) الدرر الثمينة ص ١٥٣، وانظر: وفاء الوفا ١٩٩/٢.

(٢) الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة، د أكرم ضياء العمري ص ٤٣.

(٣) انظر: التاريخ الشامل ١٠٧/١، مكة والمدينة ص ٣٧٦.

وكانوا يتفنون في طريقة الصيد، ويستخدمون لكل صيد ما يناسبه من الآلات، فكانوا ينصبون للحمار الوحشي فخاخاً من الحديد يدفنونها في التراب، ويطاردون الغزلان والأرانب بالخيل ويرمونها بالسهم، أو يضعون لها الشراك في الأرض، أو يوقدون لها النار في الليل فإذا قلَّ بصرها أمسكوها بسهولة.<sup>(١)</sup> وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَبَلُونَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

وأما صيد البحر فلم يكن من الموارد التي يعتمد عليها أهل يثرب في حياتهم؛ لبعدهم عن البحار.<sup>(٣)</sup>

ومما تقدم يتبين لنا أن يثرب تملك مقومات اقتصادية عدة تؤهلها لأن تكون مركزاً اقتصادياً مهماً في الجزيرة العربية في ذلك العصر وأهمها الموقع الجغرافي، والأراضي الخصبة، والصناعات المتعددة، غير أنها لم تبلغ هذه المكانة، ولم تظهر فيها أسواق متميزة تقصدها قبائل الجزيرة العربية كسوق عكاظ، ولم تخرج منها القوافل الضخمة على غرار قوافل مكة، وظل اقتصادها محلياً في الغالب يستفيد من القوافل العابرة، ولعل السبب الرئيسي في ذلك الفتن والحروب الداخلية التي نشبت بين الأوس والخزرج، وتأثير اليهود السلبي الذين كانوا يحتكرون السلع ويفشون الربا.

(١) يثرب قبل الإسلام ص ١٤٢.

(٢) سورة المائدة: ٩٤.

(٣) يثرب قبل الإسلام ص ١٤٢.

**الحياة الاقتصادية في** رأينا - فيما سبق - أن سكان  
**المدينة بعد الهجرة** يثرب يشكلون غالبية من العرب من  
 الأوس والخزرج، وثلاث قبائل يهودية،  
 وكانوا ينتشرون في أرض يثرب بالقرب من مجاري الأودية ومنابع المياه،  
 يعتمدون في المقام الأول على الزراعة، ثم على ما يستفيدونه من القوافل  
 العابرة، وعلى شيء من الصناعات الخفيفة.

وكانت الحالة الاقتصادية في يثرب تتذبذب وفقاً لتغير الأوضاع،  
 فتسوء عند الجذب والحرب، وتزدهر في سنوات الخصب والسلام، وعندما  
 بدأت هجرة المسلمين من مكة إليها أثرت على اقتصادياتها بادئ الأمر  
 خاصة وأن المهاجرين كانوا في الغالب فقراء، أو لم يستطيعوا إخراج  
 أموالهم معهم، حتى إن صهيب الرومي تنازل عن ماله كله لقريش مقابل أن  
 تتركه يهاجر<sup>(١)</sup>. ولكن الأخوة الإسلامية استعلت على جميع الظروف  
 الاقتصادية، فاستضاف الأنصار العائلات المهاجرة، وتوزعوها فيما بينهم،  
 وبقدر ما كانت ضيافة الأنصار كريمة، كان تعفف المهاجرين كبيراً<sup>(٢)</sup>.  
 الزراعة في العهد المدني:

عندما وصل صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بدأ بتسيخ نظام  
 اقتصادي جديد يساعد على التناقص الشريف، ويقضي على أسباب  
 الاستغلال والفساد، وكانت أولى الخطوات الممهدة لهذا النظام المؤاخاة  
 التي عقدها بين المهاجرين والأنصار، والتي كان لها أثرها الكبير في بناء

(١) انظر القصة بتمامها عند البيهقي في الدلائل ٥٢٢/٢، وصفة الصفوة ص ٤٣٠ - ٤٣١.

(٢) انظر على سبيل المثال قصة عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع رضي الله عنهما في دلائل النبوة

جو من التآلف والمحبة، مما مكن الأنصار من التفرغ للزراعة التي هي عماد حياتهم الاقتصادية، وكان صلى الله عليه وسلم يشجعهم ويقول: ((ما من مسلم يفرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة))<sup>(١)</sup>، ويقول أيضاً: ((إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل))<sup>(٢)</sup>.

وكان لهذا التشجيع أثر كبير في انخراط عدد من المهاجرين في العمل بالزراعة بعد أن كانت تعافها نفوسهم، إذ لم يأفوها في مكة، وليس لديهم خبرة فيها، وعرضت الأنصار على النبي صلى الله عليه وسلم أن يقسم مزارعهم بينهم وبين المهاجرين فأبى، ثم اتفقوا على أن يعمل المهاجرون في مزارعهم ويقسمون الثمار فيما بينهم، فنشط لذلك المهاجرون، حتى لم يبق بيت منهم إلا وصار يعمل بالزراعة،<sup>(٣)</sup> فكان عليُّ رضي الله عنه يسقي الماء من الآبار مقابل شيء من التمر، وهكذا فعل غيره من المهاجرين، ولما تكونت عندهم الخبرة الكافية شجعهم صلى الله عليه وسلم على إحياء أراض زراعية جديدة،<sup>(٤)</sup> وكانت الأنصار قد وهبت لرسول الله ﷺ كل الأراضي التي لا يصل إليها الماء، فكان ﷺ يقول: "من أعمار أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها"<sup>(٥)</sup> فازداد نشاطهم، وأعمار عدد منهم

(١) متفق عليه. البخاري كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ٨١٧/٢. ومسلم كتاب

المساقاة، باب فضل الغرس والزرع ١١٨٩/٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ١٩١/٣.

(٣) وفي البخاري: باب المزارعة بالشطر ونحوه، وقال قيس بن مسلم عن أبي جعفر قال: ما بالمدينة أهل بيت

هجرة إلا ويزرعون على الثلث والربيع، وزارع علي وسعد بن مالك وعبد الله بن مسعود... البخاري كتاب

المزارعة بالشطر ونحوه ٨٢٠/٢.

(٤) تحقيق النصرة، ص ١٤، ومجتمع المدينة في عهد الرسول ص ٣٣٨.

(٥) رواه البخاري، كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضاً موأناً ٨٢٣/٢.

كثيراً من الأراضي الموات، فكان للزبير مزرعة في المدينة يعمل فيها، وكان لعبد الرحمن بن عوف أرضٌ بالجرف يسقي على خمسين ناضحاً، وكان لسعيد بن زيد مزرعة في ذي الحليفة، وكان لهذا التشجيع أيضاً أثره في اتساع الرقعة الزراعية بالمدينة المنورة، بيد أنه لم يكن ليسد حاجة السكان المتزايدين في المدينة.

ولما أجلي الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود عن المدينة لخيانتهم ونقضهم العهود، وزّع أراضيهم بين المسلمين وخاصة المهاجرين، فظهر دخل اقتصادي جديد، عبرت عنه السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: "من حدثكم أنا كنا نشبع من التمر فقد كذبكم، فلما افتتحت قريظة أصبنا شيئاً من التمر والودك"<sup>(١)</sup>.

لكن السرايا والغزوات المتتالية كانت تترك بصماتها على الأراضي الزراعية نتيجة غياب أهلها عنها.

وجاء فتح خيبر في السنة السابعة من الهجرة ليكون بدايةً للاكتفاء الذاتي، الأمر الذي حدا بالمهاجرين إلى أن يردوا للأنصار منائحهم<sup>(٢)</sup> من التمر التي كانوا قد واسوهم بها عند قدومهم للمدينة، روى البخاري عن أنس بن مالك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتل<sup>(٣)</sup> أهل خيبر فانصرف إلى المدينة ردّ المهاجرين إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم<sup>(٤)</sup>. وقد عبر ابن عمر رضي الله عنه عن هذا التحسن

(١) صحيح ابن حبان ٤٦٠/٢، وانظر: فتح الباري ٢٩٢/١١.

(٢) المنائح: جمع منيحة وهي العطية.

(٣) المراد قتالهم.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب فضل المنيحة ٩٢٦/٢.

الواضح في الاقتصاد المدني بقوله: (لما فتحت خيبر شعبنا من التمر)<sup>(١)</sup>. ولعل خبرة اليهود الكبيرة في الزراعة وانشغال المسلمين بالجهاد من أهم الأسباب التي جعلت النبي صلى الله عليه وسلم يترك أراضي خيبر بيد اليهود يعملون فيها على النصف مما يخرج منها، ثم سارع أهل فدك وغيرهم يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يصالحهم على ما صالح عليه أهل خيبر فقبل منهم، وكثرت الخيرات لدى المسلمين، فكان صلى الله عليه وسلم يعطي أزواجه في كل عام من خيبر ثمانين وسقاً من تمر وعشرين من شعير.<sup>(٢)</sup>

وهكذا يتبين لنا أن التمر ظل بعد الهجرة أيضاً الثمرة الأولى من حيث الكمية والأهمية، وكان صلى الله عليه وسلم يشجع على زراعته ويقول: ((بيت لا تمر فيه جياع أهله))<sup>(٣)</sup> ويفسر الشجرة الطيبة في قوله تعالى: ﴿الْمُتْرَكِيْفَ ضَرْبِ اللَّهِ مَثَلًا لِّكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾<sup>(٤)</sup> بالنخلة، ويشبهها بالمؤمن؛ لكثرة عطائها وتنوعه.<sup>(٥)</sup>

(١) فتح الباري ١١/٢٩٢، وانظر: تلخيص الحبير ٣/١٢٢.

(٢) روى الإمام مسلم في صحيحه عن نافع عن ابن عمر قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر بشطر ما يخرج من ثمر أو زرع فكان يعطي أزواجه كل سنة مائة وسق، ثمانين وسقاً من تمر وعشرين وسقاً من شعير، فلما ولي عمر قسّم خيبر خير أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطع لهن الأرض والماء أو يضمن لهن الأوساق كل عام فاختلفن، فمنهن من اختار الأرض والماء ومنهن من اختار الأوساق كل عام، فكانت عائشة وحفصة ممن اختارنا الأرض والماء. صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من التمر والزرع، ٣/١١٨٦.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب في ادخار التمر ونحوه من الأقوات للعيال ٣/١٦١٨.

(٤) سورة إبراهيم: ٢٤.

(٥) روى البخاري في صحيحه ١/٣٤ عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدّثوني ما هي، فوقع الناس في شجر البواقي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت. ثم قالوا: حدّثنا ما هي يا رسول الله. قال: هي النخلة.

وظل الشعير أيضاً في الدرجة الثانية بعد التمر من حيث الكمية والأهمية، يزرعونه تحت أشجار النخيل حيناً وفي حقول مستقلة أحياناً أخرى، يليه العنب وسائر الخضروات والبقول<sup>(١)</sup>.  
التجارة في العهد المدني:

ازدهرت التجارة بعد الهجرة بشكل تدريجي، وكان لبعض الصحابة كأبي بكر وعبد الرحمن بن عوف والزيبر وطلحة وغيرهم دور بارز في ذلك نتيجة لخبراتهم السابقة، ومهاراتهم الفائقة، ولما آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع عرض عليه سعد أن يشاطره ماله ويزوجه، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك دلني على السوق، وما هي إلا فترة وجيزة حتى جنى أرباحاً وافرة<sup>(٢)</sup>، وهذا ما شهد به أبو هريرة رضي الله عنه حين قيل له: إنك تكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحدث بما لم يحدث به أبو بكر وعمر، فقال: "إن إخواننا المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق"<sup>(٣)</sup>.

وقد كان تجار الصحابة يترددون بادئ الأمر على سوق بني قينقاع، وهي أشهر أسواق المدينة، وأكثرها حركة، حتى أصبحت لهم ثروة كبيرة استطاعوا بها أن يستغنوا عن سوق بني قينقاع وغيره من أسواق اليهود، وحيوا سوقاً في منطقة المناخة، اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين غربي المدينة، ممتداً من الشمال إلى الجنوب بطول ٥٠٠م

(١) التاريخ الشامل ٢٣٢/١ - ٢٣٣.

(٢) انظر القصة في دلائل النبوة ٢١٨/٦ - ٢١٩.

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم، باب حفظ العلم، ٥٥/١.

وعرض ١٠٠م تقريباً<sup>(١)</sup>، وكان هذا السوق بمثابة ضربة قاضية لاقتصاد اليهود التجاري، من حيث تحول المسلمين إليه أولاً، واختيار موقعه ثانياً، فقد كان اختياراً يدل على عمق تجربتهم التجارية، وفهمهم أمور البيع والشراء، إذ كان واقعاً في جهة هي بمثابة المدخل الرئيس للمدينة، سواء من جهة الشام أو اليمن ومكة، وديار سائر القبائل المجاورة، مما مكنهم - ولا ريب - من تلقي التجار والوفود، حال وصولهم، موفرين عليهم مشقة الالتفاف برواحلهم المحملة حول بيوت المدينة أو التخلخل بينها حتى يصلوا إلى سوق اليهود داخل المدينة.<sup>(٢)</sup>

كما كان لتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم وإرشاداته الأثر الأكبر في تنشيط حركة السوق الجديد وتحول الناس إليه، فقد جعل السوق مجانية لكل من أراد التجارة، روى ابن شبة بسنده عن عطاء بن يسار قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يجعل للمدينة سوقاً أتى سوق بني قينقاع ثم جاء سوق المدينة فضربه برجله وقال: (هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج)<sup>(٣)</sup>، ويروى أنه مر بالسوق فوجد خيمة قد نُتبتت، فقال: ما هذه الخيمة؟ قالوا: لرجل من بني حارثة يبيع فيها التمر، فقال: حرقوها فحرقته، فكانت المواضع لمن سبق إليها كل يوم.<sup>(٤)</sup>

وغرس صلى الله عليه وسلم في قلوب المسلمين الصدق والأمانة في

(١) توسع بعضهم في مساحة السوق فأوصله إلى خمسمائة متر عرضاً وألف ومائتي متر طولاً. انظر: الحركة

العلمية في عصر الرسول وخلفائه. للوكيل ص ١٤٨.

(٢) مجتمع المدينة في عهد الرسول ص ٣٤١.

(٣) تاريخ المدينة ٣٠٤/١، ونقله عنه السمهودي في الوفا ٧٤٧/٢.

(٤) أورده ابن زبالة بسنده، وهو علته مع انقطاعه. انظر: بحث البناء والكراء في سوق المناخة، مجلة مركز

بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد الخامس، ص ٢٥.



التعامل، وأقام العلاقات بينهم على المحبة والأخوة، وقضى على أسباب الاستغلال والفساد، فحرم الربا وتلقي الركبان والمناجشة والاحتكار والغش والرشوة، وكان يتابع صلى الله عليه وسلم ذلك بنفسه، فقد مر ذات يوم فرأى صَبْرَةَ طعام، فأدخل يده فيها، فأصابته أصابعه بللاً، فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال الرجل: أصابته السماء يا رسول الله. قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟! من غش فليس مني ((<sup>(١)</sup>). كما حرم كل ما يفضي إلى التنازع في المعاملات كالملازمة والمنابذة<sup>(٢)</sup> وبيع الثمرة قبل بُدُو صلاحها، وغير ذلك من البيوع التي كانت معروفة في الجاهلية مما فيه غرر أو ضرر بأحد المتبايعين.

وأقرّ وحدات الوزن المكية، كما أقرّ مكاييل أهل المدينة فقال: "الميزان ميزان أهل مكة، والمكيال مكيال المدينة"<sup>(٣)</sup>. "وهذا التقرير يهدف إلى توحيد المكاييل والموازين في الدولة الإسلامية، وهي خطوة مهمة لاستقرار العدل في المعاملات التجارية، ويرجع اختيار ميزان أهل مكة؛ لشهرتهم في التجارة، وتعاملهم بالأوزان من المثاقيل والدراهم والأواقي ونحوها، فكانوا فيها أدق وأضبط، كما يرجع اختيار مكيال أهل المدينة؛ لكونهم مزارعين يتعاملون بالمكاييل من الوسق والصاع والمد

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ من غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا ٩٩/١.

(٢) الملازمة والمنابذة من أنواع البيوع التي كانت شائعة في الجاهلية، وتعني الملازمة: لمس الرجل ثوب الآخر بيده بالليل أو بالنهار، ولا يقبله إلا بذلك. وأما المنابذة: فهي أن ينبذ الرجل إلى الرجل بثوبه وينبذ الآخر إليه ثوبه، فيكون ذلك بيعهما عن غير نظر ولا تراض. انظر: الإلمام بأحاديث الأحكام لابن أبي الطاعة القشيري ٤٩١/٢.

(٣) الحديث صححه ابن حبان والدارقطني والقشيري وابن دقيق العيد والعلاني. انظر: التلخيص الحبير لابن

ونحوها، فكانوا فيها أدق وأضبط، فأمر النبي ﷺ بالرجوع في كل معيار إلى من هم أعلم به" (١).

وبهذه الرعاية للسوق، والمحافظة على كيانه، اتسع نطاق التعامل فيه حتى قصده التجار من أنحاء الجزيرة العربية ومن خارجها، فكانت الثمار ترد إليه من الطائف، والحبوب والسمن والعسل تأتي إليه من الشام (٢). وكان للأعراب حول المدينة دور في تنشيط حركة السوق، فقد كانوا يأتون بالسمن والأقط والإبل والغنم فيبيعونها، ثم يشترون ما يحتاجون إليه من طعام وكساء وسلاح وغير ذلك.

ولم تقتصر ممارسة المسلمين للتجارة على الأسواق الداخلية بل أصبحوا يخرجون بها إلى الشام، كما ورد عن أبي بكر رضي الله عنه أنه خرج قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعام إلى بصرى وكان معه جمع من الصحابة، (٣) وورد أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر لقيا الزبير وجمعاً من الصحابة كانوا قادمين من الشام، فكسى الزبير الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياباً بيضاء، (٤) بل إن بعض الصحابة كان قد بدأ بالسفر بالتجارة إلى الشام في وقت مبكر من هجرة المسلمين إلى المدينة، فقد روى بعض أصحاب السير أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى بدر كان طلحة بن عبيد الله غائباً في تجارة إلى الشام، ثم قدم بعد أن رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر، فضرب له بسهم (٥) وهذا ما

(١) فقه الزكاة للقرضاوي ٢٥٤/١ بتصريف يسير.

(٢) التاريخ الشامل ٢٣٧/١.

(٣) انظر: الاستيعاب في ترجمة سويبط بن سعد، ١٢٠٨.

(٤) البخاري، كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ، ص ٨١٨.

(٥) أسد الغابة ٥٤٣/١ ترجمة طلحة بن عبيد الله.

يفسر الثروة التي جمعها بعض الصحابة في فترة وجيزة كعثمان بن عفان رضي الله عنه الذي استطاع أن يجهز جيش العسرة بألف بغير وسبعين فرساً وألف دينار<sup>(١)</sup>.

وظلت الدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية العملة المتداولة على الراجح من الأقوال، كما بقيت المكاييل المدنية والموازين المكية التي كانوا يستعملونها في الجاهلية شائعة في التعامل بين المسلمين. تربية الماشية في العهد النبوي:

**وأما تربية المواشي** فقد نمت بعد الهجرة نمواً كبيراً<sup>(٢)</sup>، فبينما كان المسلمون في غزوة بدر يتعاقبون على سبعين بغيراً وفرسين، استطاع عثمان بن عفان بمفرده أن يمول جيش العسرة بألف بغير وسبعين فرساً.

وكان للغنائم التي تأتي بها السرايا والغزوات أثر كبير في تنمية هذه الثروة الحيوانية، فقد غنم المسلمون في حنين وحدها أكثر من أربعة وعشرين ألف بغير وأربعين ألف شاة عدا الأفراس والأبقار<sup>(٣)</sup>، وكان اهتمام المسلمين بها كبيراً خاصة الجمال والأفراس؛ لحاجتهم إليها في السفر والقتال، وقد حمى النبي ﷺ مكاناً واسعاً تبلغ مساحته ميلاً في خمسة أميال يسمى النقيع<sup>(٤)</sup> لترعى فيه خيول المسلمين،<sup>(٥)</sup> وكان لهم سرح وهو: أن أن يجمع ما في المدينة من الجمال مثلاً أول النهار في مكان واحد، ثم يخرجها الرعاة إلى المراعي ويعودون في المساء، وربما قامت الجوارى برعي

(١) انظر: الاستيعاب ١/٢٢٠.

(٢) مكة والمدينة ص ٢٩٦.

(٣) الطبقات الكبرى ٢/١٥٢.

(٤) يقع النقيع على بعد ١٢٠ كم جنوب المدينة المنورة، بالقرب من الهندية.

(٥) انظر: مكة والمدينة ص ٢٩٦.

أغنامهن.

وكان للنبي صلى الله عليه وسلم سبع منائح من الغنم وسبع أعنز يرعاهن أيمن بن أم أيمن<sup>(١)</sup>، كما كان له عشرون لقحة يرعاها مولاه يسار في الغابة.<sup>(٢)</sup>

وكان لإلغاء الحمى الذي كان شائعاً في الجاهلية والذي يفرضه الأقوياء على مناطق واسعة من الأراضي، واختصاصه فقط بما يحميه الحاكم لمصالح الدولة بشكل عام؛ أثر كبير في حرية المراعي دون احتكار الأقوياء لها.<sup>(٣)</sup>

الصناعة في العهد المدني:

ازدهرت الصناعة بعد الهجرة بشكل عام، وكان لتشجيع النبي صلى الله عليه وسلم بالتوجيه حيناً والتطبيق حيناً آخر أثر كبير في تغيير النظرة الوضيعة التي كانت تنظر بها العرب إلى الصناعة والصنّاع.

دعاه مرة خياط إلى خبز شعير وإهالة فيها قرع فسارع إلى تلبية الدعوة مصطحباً معه أنس بن مالك<sup>(٤)</sup>، كما دفع ابنه إبراهيم إلى زوجة أبي سيف، وكان قيناً - أي حداداً - لترضعه<sup>(٥)</sup>، وكان ربما يدخل على أبي

(١) الكامل في التاريخ ١٨٠/٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ الصَّعْبُ بن جَنَامَةَ قال: إن رسول الله ﷺ قال: 'لا حمى إلا الله ولرسوله وقال: بلغنا أنّ النبي ﷺ حمى النَّقِيعَ... انظر: صحيح البخاري، كتاب المساقاة والشرب، باب: لا حمى إلا لله ورسوله ٨٣٥/٢.

(٤) انظر الحديث في مسند الإمام أحمد ٢٨٩/٣، وأبي يعلى ٢٦٥/٥.

(٥) انظر: الحديث في مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصَّبَّان والعيال وتواضعه وفضل ذلك ١٨٠٧/٤.

يوسف وهو ينفخ في كيره وقد امتلأ البيت بالدخان<sup>(١)</sup>، وكان يقول صلى الله عليه وسلم: (( ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده ))<sup>(٢)</sup>، وسأله ذات مرة رجل أن يعينه فقال له: (اذهب واحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً، ففعل، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم...)<sup>(٣)</sup> وأمر بتعليم المرأة حرفة الغزل<sup>(٤)</sup>، وقال: (إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نضر الجنة، صانعه المحتسب في صنعته الخير والرامي به ومنبله...)<sup>(٥)</sup>، وشارك ﷺ بالعمل بيده الشريفة في بناء مسجد قباء، والمسجد النبوي، وكان يحمل الحجارة كما يحملون.

وتعدّ صناعة البناء أولى الصناعات التي ازدهرت بعد الهجرة واستمرت إلى ما بعد فتح مكة، نتيجة للأعداد الكبيرة التي هاجرت إلى المدينة المنورة، وهي في حاجة لمساكن تعيش فيها، وكان ﷺ يحدد لهم الأماكن التي يبنون عليها، ومعظمها حول المسجد النبوي الشريف، وكانت بيوتهم بسيطة تفي بالحاجة دون تفخيم أو تزيين. ولم يرد - كما قدمت - ذكر لبنائين محترفين في هذه الحقبة، إنما تشير الروايات إلى أنهم كانوا يبنون بيوتهم بأنفسهم وبمساعدة معارفهم دون أجر<sup>(٦)</sup>.

وأما الحدادة والنجارة فكانت الحاجة إليها شديدة في صناعة الأسلحة

(١) المرجع السابق.

(٢) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده ٧٢٠/٢.

(٣) جامع الأصول لابن الأثير ٣٥٦/١٠.

(٤) نيل الأوطار للشوكاني ٣١/٦.

(٥) سنن النسائي ٢٢٣/٦، ومسند أحمد ١٤٨/٤ واللفظ له.

(٦) الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة د أكرم ضياء العمري ص ٤٢.

للدفاع بها عن المدينة، وللحاجة إليهما أيضاً في صناعة الآلات الزراعية والأدوات المنزلية التي زاد الطلب عليها بعد تزايد سكان المدينة، واتساع الرقعة الزراعية فيها، وليس لدينا معلومات تفصيلية عن الورش التي انتشرت في المدينة، لكننا نتوقع أنها كانت تنمو مع نمو الطلب على منتجاتها.

وكانت اليهود وبعض الموالي تسيطر على هاتين الصناعتين، وأما المسلمون فلم يشتهر بينهم في الحدادة إلا أفراد قليلون، منهم أبو سيف<sup>(١)</sup> زوج مرضعة إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم، وخباب بن الأرت<sup>(٢)</sup>، ومرزوق الصيقل<sup>(٣)</sup>، وهو الذي صقل سيف الرسول صلى الله عليه وسلم ذا الفقار<sup>(٤)</sup>.

وكان منهم النجار الذي صنع منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup>. وكان المسلمون بادئ الأمر يعتمدون في تسليحهم وباقي ما يحتاجونه على هؤلاء الأفراد، وعلى ما يشترونه من اليهود، أو ما يغنمون من الغزوات، وعندما خرج اليهود من المدينة قُلت دكاكين الحدادة، واشترى

(١) كان من الأنصار، وهو زوج أم سيف مرضعة إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم، ثبت ذكره في الصحيحين. الإصابة في تمييز الصحابة ١٩٧/٧.

(٢) من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل دار الأرقم، وكان ممن يؤذى في الله فيصبر ويحتسب، هاجر وشهد بديراً وما بعدها من المشاهد، توفي سنة ٣٧هـ البداية والنهاية لابن كثير ٣١١/٧.

(٣) مختلف في صحبته، أخرج البغوي والطبراني من طريق محمد بن حمير قال: حدثنا أبو الحكم حدثني مرزوق الصيقل أنه صقل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا الفقار، وكانت له قبعة من فضة وحلق في قيده، وبكرة في وسطه من فضة. قلت: وليس في هذا ما يدل على صحبته وإنما ذكرته لاحتمال أن يكون عند من جزم بصحبته مستند آخر. الإصابة في تمييز الصحابة ٧٧/٦.

(٤) انظر: الإصابة لابن حجر ٧٧/٦.

(٥) وقد اختلف في اسمه على أقوال أصحها أنه ميمون. فتح الباري ٣٩٩/٢.

الناس حاجاتهم من القوافل التجارية القادمة من الشام واليمن، ولما فتحت خيبر أسر المسلمون ثلاثين حداداً، فاستبقاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بين المسلمين؛ للانتفاع بصناعتهم خاصة صناعة الأسلحة.<sup>(١)</sup>

وإلى جانب ذلك كان في المدينة الخياطة والخبازة والدباغة والخرابة والخواصة والنساجة والحجامة والقصابة وغيرها، فقد كان سلمان الفارسي رضي الله عنه يصنع الخوص ليأكل من عمل يده<sup>(٢)</sup>، وكانت زينب زوج النبي صلى الله عليه وسلم تدبغ الجلود ثم تبيعها وتتصدق بثمنها<sup>(٣)</sup>، وقد أهدت إحدى الأنصاريات لرسول الله صلى الله عليه وسلم بردة نسجتها بيدها فقبلها منها<sup>(٤)</sup>.

**وأما الصياغة:** فكانت مزدهرة في السنتين الأوليين من الهجرة، خاصة في أسواق بني قينقاع، حيث كانوا يحلون مقابض السيوف والخناجر، وينقشون على الأختام اسم صاحبها، ويصنعون أنوفاً من ذهب لمن أصيب أنفه، فلما نزع بنو قينقاع ضعف هذه المهنة إلى درجة كبيرة، ولما خرج بنو النضير وقتل بنو قريظة لم يبق من دكاكين الصياغة إلا ما ندر. وكان لتحريم الإسلام استعمال أواني الذهب والفضة، وتحريمه استخدام الذهب للرجال دور كبير في عدم ازدهار هذه الصنعة مرة أخرى. **وظلت صناعة الخمر مزدهرة إلى أن جاء تحريم الخمر بشكل كلي**

(١) انظر: التراتيب الإدارية ٧٤/٢، والتاريخ الشامل ٢٣٤/١.

(٢) الإصابة ١٤١/٣.

(٣) مرقاة المصابيح ٣٢٨/٤.

(٤) انظر: الحديث في البخاري، باب من استعد الكفن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فلم يُكْرَ عليه،

في السنة (الثالثة) <sup>(١)</sup> من الهجرة بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ  
وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ <sup>(٢)</sup> فسارع المسلمون إلى  
الاستجابة، وأراقوا ما عندهم من دنان الخمر، ومن ثم توقفت هذه الصنعة  
بشكل كلي لدى المسلمين.

وظل أفراد من المسلمون يمارسون الصيد بعد الهجرة بطرائقهم  
وأساليبهم المعتادة، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم المدينة من جبل  
عير إلى جبل ثور، وجعلها منطقة محمية منع الصيد فيها، فابتعد الصيادون  
إلى الغابة ومناطق أخرى خارج الحرم، كما أرشد الصيادين إلى ذكر اسم  
الله تعالى عند الرمي، أو إرسال الكلب المعلم، ومنع أكل ما صيد  
بالمعراض إذا قتل بثقله لا بحده، إلى غير ذلك من الإرشادات النبوية التي  
تعرف في أماكنها من كتب الحديث والفقهاء.

الغنائم في العهد المدني:

وأما الغنائم التي كانت تأتي بها السرايا والغزوات فهي وإن لم تكن  
هدفاً أساسياً من أهداف الجهاد إلا أنها رفعت من اقتصاد المدينة،  
وساعدتها على مواكبة الزيادة السكانية فيها، فقد جاءت غزوة بدر  
بمغانم جيدة، أُسِرَ فيها سبعون من رجال قريش، افتداهم أهلهم بأموال  
كثيرة، وجاءت غزوة قرقرة الكدر بخمسائة من الإبل <sup>(٣)</sup>، وغزوة القردة

(١) وقيل: نزل تحريمها في السنة الرابعة. تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف

٣٠٠/١. وكان تحريمها في حصار بني النضير من اليهود مكان المسجد المعروف بالفضيخ. انظر: المغانم

المطابفة ٤٧٩/١.

(٢) سورة المائدة: ٩٠.

(٣) الطبقات الكبرى ٣١/٢.



بما قيمته مائة ألف درهم<sup>(١)</sup>، وكانت غنائم بني المصطلق ألفي بعير، وخمسة آلاف شاة<sup>(٢)</sup>، فضلاً عن الأمتعة والسلاح، كما كان إجلاء اليهود من المدينة والاستيلاء على أراضيهم وأموالهم من أقوى الروافد الاقتصادية التي أتاحت للمسلمين الخروج من عيشة التقشف إلى شيء من الاكتفاء - كما تقدم من حديث عائشة - ، ثم جاءت غنائم خيبر ليوذع المسلمون بعدها سنين من الجوع والفقر، وتضعهم في أولى خطوات الازدهار الاقتصادي، وهذا ما عبّر عنه غير واحد من الصحابة بقولهم: (لما فتحت خيبر شبعنا من التمر)<sup>(٣)</sup>.

ثم جاءت غنائم حنين الطائلة لتكشف عن الوضع الاقتصادي الجيد عند المسلمين، فقد بلغت الغنائم أربعة وعشرين ألفاً من الإبل، وأربعين ألفاً من الشياه، وأكثر من أربعة آلاف أوقية من الفضة<sup>(٤)</sup>، فضلاً عن الأمتعة والسلاح.

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليوزع معظم هذه الغنائم على المؤلفة قلوبهم لو لم يكن الوضع الاقتصادي عند المسلمين يسمح بهذا السخاء الكبير، ثم إن نصيب المحارب الذي فضل بعد هذه الأعطيات ليسمح بأن يطلق عليه ثروة، فقد بلغ نصيب الرجل أربعة من الإبل وأربعين شاة، ونصيب الفارس اثنا عشر بعيراً، ومائة وعشرين شاة<sup>(٥)</sup>.  
وجملة القول: إن المسلمين في المدينة عاشوا في السنوات الأولى من

(١) الدولة في عهد الرسول لصالح العلي ص ٣٥٧ - ٣٦٠.

(٢) الطبقات الكبرى ٦٤/٢.

(٣) فتح الباري ٢٩٢/١١، وانظر: تلخيص الحبير ١٢٢/٣.

(٤) سبل الهدى والرشاد ٣٣٩/٥.

(٥) المختصر ص ٣٥٩، التاريخ الشامل ٢٢٨/١.

الهجرة عيشة تقشف وضيق، مع وجود أعداد قليلة من التجار امتلكوا ثروات كبيرة لكنهم أوقفوها لخدمة هذا الدين، ومع تطور الموارد الاقتصادية بما فيها المغنم التي تأتي بها السرايا والغزوات تحسن وضعهم الاقتصادي شيئاً فشيئاً إلى أن بلغ حد الاكتفاء بعد فتح خيبر، ثم تطور بعد ذلك تطوراً كبيراً خاصة بعد غزوة حنين، فقد شعر العرب بقوة المسلمين وهيبتهم، فمنهم من دخل في الإسلام وأدى الزكاة، ومنهم من صالح على الجزية والخراج، وأصبحت مصادر التموين في الجزيرة كلها تحت سلطانهم، فكانت الأموال تجبي وترفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة فيوزعها على المسلمين، روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه أتى بمال من البحرين فقال صلى الله عليه وسلم: ((انثروه، يعني صبوه في المسجد، وكان أكثر مال أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج إلى المسجد ولم يلتفت، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحداً إلا أعطاه...))<sup>(١)</sup>.

ومع ازدهار الاقتصاد وتطوره في المدينة إلا أن السنوات المجدية كانت تترك آثاراً ثقيلة على المسلمين، ففي السنة السادسة من الهجرة أصاب الناس قحط شديد، ولحق بهم الضر، فاستسقى بهم النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان فمطروا.<sup>(٢)</sup>

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب القسمة وتعليق القنو في المسجد، ١٦٢/١.

(٢) روى البخاري عن أنس بن مالك قال: أصابت الناس سنة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في يوم جمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا. فرفع يديه وما نرى في السماء قرعة فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم، فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى. وقام ذلك الأعرابي أو قال غيره فقال: يا رسول الله تهدم البناء وغرق المال فادع الله لنا. فرفع يديه فقال: اللهم حولينا ولا علينا. فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت

وفي السنة التاسعة من الهجرة جهز النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً لغزو تبوك، وكان الناس في ضيق شديد، فقد اجتمع عليهم جذب السنة الماضية، وعدم نضوج ثمر السنة، مع شدة حر الصيف، وكان بعض الصحابة لا يجد ما يسهم به إلا صاعاً من تمر يأخذه من قوت عياله، بينما استطاع البعض الآخر أن يأتي بأموال وفيرة كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وأبي بكر الصديق وأمثالهم رضي الله عنهم أجمعين. ويبدو أن اعتماد أهل المدينة على أراضيهم الزراعية في إطعام أنفسهم ودوابهم، وعدم استيرادهم من الطعام إلا القليل النادر، ثم إنفاقهم أولاً بأول في سبيل الله، وعدم شيوع الادّخار والأموال المكتتزة لدى معظم المسلمين هو السبب وراء الضيق والجوع الذي يقعون فيه عند قلة الأمطار أو انعدامها، وهذه الظاهرة معروفة في المدينة حتى بعد الفتوحات الإسلامية التي حصلت في عهد أبي بكر وقسط من عهد عمر رضي الله عنهما، كما هو معروف من عام الرمادة. والله أعلم.



وصارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناة شهراً ولم يجئ أحدٌ من ناحيةٍ إلا حدّث بالجود.

صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة ٣١٥/١.